الطَّيْرُ الشَّارِد

[قِصَةُ طَائِرٍ هَرَبَ بِقُيُودِهِ مِنْ قَفَصِهِ الذَّهَبِيِّ]

فِي وَادِي الظَّلاَمِ الَّذِي يَطْفَحُ بالهَوْلِ وَتَفِرُّ الشَّيَاطِينُ هَارِبةً مِنْ جَحِيمِه،.. وَفِي وَسَطِ الغُيُومِ الثَّقِيلَةِ تَحْتَ ثِقَلِ خَطْوِ هَوْدَجِ اللَّيْلِ الأَسْوَدِ الزَّاحِفِ، وَالعَوَاصِفِ المُتَمَرِّدَةِ فِي بَرْدِ شِتَاءِ الضَّبَابِ وَالثُّلُوجِ، وَالهُوَّةِ المُتَّسِعَةِ السَّحِيقَةِ،.. وَالأَرْضِ الَّتِي تَطْوِي صَحَائِفَ أَسْلاَفِها وَتُعِيدُهُمْ أَجِنَّةً مَخْنُوقةً فِي رَحِمِهَا.. وَأَشْجَارِ الغَابَةِ السَّامِقَةِ الَّتِي تَجِنُّ أَغْصَانًا تَدَلَّتْ فِي فَرَاغٍ بَاهِتِ الصُّفْرَةِ وَخُضْرَةٍ غَامِضَةٍ وَيَنَابِيعَ غَائِرةٍ مَاتَ فِيهَا الصَّدَى وَسُجِّيَ عَلَي حَفَافِيهَا مَيْتُ الزَّهْرِ الَّذِي غَاضَ أَرِيجُه؛ فَمَا إِنْ تَبَسَّمَتْ أَكْمَامُهُ -تَغُرُّهَا الأَحْلاَمُ- حَتَّى عَصَفَ بِهَا الرِّيحُ فَهَوَتْ إِلَي صَدْرِ التُّرَابِ،.. وَأَحْجَارٍ وهَيَاكِلَ صَخْرِيَّةٍ مُبَعْثَرَةٍ هُنَا وَهُنَاكَ مُتَخَرِّمَةِ الصَّحَائِفِ مِنَ الرِّيَاحِ وَالْمَطَر..

فَتَتَبَعْثَرُ فَوْضَى التَّضَارِيسِ البكْرِ، وَتَتَنَاثَرُ الأَشْيَاءُ بِعَفَوِيَّةٍ مَقْصُودَةٍ بِنِظَامٍ زُخْرُفِيٍّ طَبِيعِيٍّ عَجِيبٍ؛ مُشَكِّلَةً قَوَالِبَ سِرْيَالِيَّةً تُمَثِّلُ إِعْجَازًا فَنِّيًّا؛ يَحْسَبُهَا الغِرُّ رُسُومًا عَبَثِيَّةً -يَصُبُّ عَلَيْهَا الإِنْسَانُ مِنْ ذَاتِهِ أَوْ مِنْ خَيَالاَتِهِ وَأَوْهَامِهِ- تَفِيضُ بِالْمَوْتِ وَالحَيَاةِ، تَرْسُمُ خَرِيطَةً لِعَنَاكِبِ الأَلْوَانِ الْبَاهِتَةِ، وَقَدْ قَحَطَتْ فِيْهَا الأَلْوَانُ؛ فَلاَ تَرَى -إِنْ رَأَيْتَ- إِلاَّ القَتَامَةَ قَدْ أَكَلَتْ كُلَّ الأَلْوَان!.. فِي لَحْظَةٍ اخْتَلَطَ فِيهَا الزَّمَانُ بِالمَكَانِ .. فَلاَ زَمَانَ ولاَ مَكَان،

وَلاَ سَمَاءَ وَلاَ أَرْض؛ فَقَدِ اخْتَلَطَ الكُلُّ بِالقَتَامَةِ!!

وَكَالطَّيْرِ الشَّارِدِ أَتُوقُ إِلَي الحُرِّيَّةِ وَأَنْشدُهَا.. أَهْرُبُ مِنْ ذَهَبِ القَفَصِ وَالدِّفْءِ الخَانِقِ وَحُمَّى السَّرِيرِ وَلِينِ الفِرَاشِ المُحْرِقَة.. وَلَكِنَّ سَلاَسَلَ القَيْدِ فِي قَدَمَيَّ تَعُوقُ طَيَرَانِي نَحْوَ الأَمَلِ المَنْشُودِ. ...

❁❁❁❁❁

أُلَمْلِمُ نِتَفَ أَحْلاَمِي المُبَعْثَرَةِ في أُفُقِ الغُيُومِ لأُسْقِطَهَا عَلَى شَظَايَا الوَاقِعِ الكَئِيبِ ..

❁❁❁❁❁

وَفِي تِلْكَ الأَرْض الَّتِي تَلْبَسُ الحِدَادَ، وَقَدْ نَزَلَ السَّيْلُ عَلَيْهَا يَجْرِفُ نَبْتَهَا الذَّاوِي؛ أَسْقُطُ فِي بِرَكِ الوَحْلِ وَطِيْنِهِ المَحْمِي فَوْقَ بُرْكَانٍ مَكْتُومٍ؛ يُلْقِمُ فَمِي بِالطِّينِ وَالمَاءِ والحِجَارَةِ، وَأَمْسَيْتُ كَتِمْثَالٍ مِنْ مِلْحٍ يَذُوبُ فِي الْوَحْلِ!.. أَوْ كَتِمْثَالٍ مِنْ شَمْعٍ مَصْهُورٍ!.. وَسَقَطَ مَعِي فِي هَذَا الوَحْلِ؛ الْوَقْتُ بَعْدَ أَنْ فَرَّتِ اللَّحَظَاتُ الزِّئْبَقِيَّةُ مِنْ كَفِّي، وَتَفَلَّتَتْ مِنْ بَيْنِ أَصَابِعِي .. غَاصَتْ فِي الوَحْلِ .. تَقَرَّحَتْ وَتَقَيَّحَتْ كَجَسَدِي .. يَرْكُضُ الوَحْلُ فِي مَكَانِهِ وَلاَ يُحَوِّلُنِي عَنْ مَكَانِي، يَلْفِظُنِي وَلاَ يَتْرُكُنِي .. وَيَرْكُضُ الزَّمَانُ وَلاَ حِرَاكَ!.. وَالرِّيحُ تُصْفِرُ مِنْ حَوْلِي .. تُزَمْجِرُ .. تُهَدِّدُ وَتَتَوَعَّدُ،.. وَاخْتَنَقَتِ الصَّرَخَاتُ المُلْتَاعَةُ فِي مَسَامِيِّ،... وَيُزْهِقُ أَنْفَاسِي -فِي هَذَا الوَحْلِ الخَانِقِ- عَطَنُ الجِيفَةِ وَالعَفَنِ المَطْمُورِ في برَكِ الوَحْلِ وَعَصِيرِهِ والغِسْلِينِ وَالمَاءِ الآسِنِ وَزَنَخِ الزَّهْمَةِ مِنْ سِفَادِ الأَرْضِ .. وَآهٍ مِنْ خَنْقِ

القَيْد!

أُحَاوِلُ أَنْ أُزَمِّلَ فَجَائِعَ القَلْبِ بِالآمَالِ الكِذَابِ، وَلَكِنْ سُرْعَانَ مَا أَتَهَاوَى إِلَي قَعْرِ الحُزْنِ العَمِيق.. أَتَكَوَّرُ عَلَي نَفْسِي، وَأَرْجِعُ بِأَلَمِي وحُزْنِي إِلَي وحْدَتِي، وَعَلَي كَاهِلِي جَبَلٌ مِنَ الهُمُومِ؛ تَسِيلُ وُدْيَانُهُ دَمًا وَقَلَقًا وَعَذَابًا .. وَقَدِ اعْتُقِلَ المَاضِي فِي فُوَّهَةِ بُرْكَان، وَاخْتُصِرَ المَاضِي فِي كَلِمَةِ "كَان" .. أُقَلِّبُ صَفَحَاتِ كِتَابِ العُمْرِ المُتَشَابِهَةَ القَاحِلَةَ المَتْرُوكَةَ فِي الشَّمْسِ وَالمَطَر؛ ذَاكِرَتِي الْوَهَمُ وَقَدْ تَسَمَّمَ بِهَا عَقْلِي، وَأَحْلاَمِي هَوَاءٌ؛ وَقَدْ أَحْرَقَهَا الوَاقِعُ المَرِيرُ بِنَارِهِ بَعْدَ أَنْ وَطِأَ بِنَعْلِهِ الحَدِيدِي المُتَّسِخِ صَفَحَاتِ عُمْرِي،.. وَكُنْتُ قَدْ بَنَيْتُ مِنَ السَّرَابِ مُقَدَّسَاتٍ سُرْعَانَ مَا تَهَاوَتْ إِلَي رُفَات!.. كَانَتْ ظِلاَلاً وَرَاءَ العَتْمَةِ تَنْمُو.. تَتَعَاظَمُ، وَلَكِنْ مَا إِنْ أَشْرَقَتْ عَلَيْهَا الشَّمْسُ تَضَاءَلَتْ وَانْمَحَتْ وَصَارَتْ سَرَابًا هَبَاءً!!!

وَيَا لَتَفَاهَةَ مَا حَصَّلْتُ بَعْدَ انْجِلاَءِ الحَقَائِقِ! .. فَكَمْ حَدَوْتُ وَمَالِي بَعِيرٌ، .. وَمَدَدْتُ القَوْسَ مِنْ غَيرِ وَتَرٍ، ... وَاليَوْمَ أَمْسَيْتُ أَتَجَشَّأُ مِنْ غَيرِ شَبَعٍ!! .. وَكَمْ غَزَلْتُ المُحَالاَتِ مِنْ خُيُوطِ العَنْكَبُوتِ الوَهْمِيَّةِ فِي دَرْبِ عُمْرِي، وَرَسَمْتُ الخَيَالاَتِ عَلَي صَحَائِفِ عَقْلِي العَلِيلِ!..

وَالْيَوْمَ .. أَمْسَيْتُ مُتَهَدِّمَ البُنْيَانِ، مُتَنَاثِرَ اللَّبِنَاتِ، مُشَوَّهَ المَعَالِمِ .. فَالعَقْلُ خَوَاءٌ وَالقَلْبُ هَوَاء! أَتَذَوَّقُ الحَسْرَةَ مِنْ ضَخَامَةِ الوَهَمِ.

وَأَمْسَيْتُ أَرَى الجَمَالَ فِي الأَرْضِ القَاحِلَةِ .. وَالأَوْرَاقِ الزَّابِلَةِ .. وَرِمَمِ

المَوْتَى .. وَالأَجْدَاثِ المُتَفَتِّحَةِ وَجَمَاجِمَ مَفْغُورَةِ الأَفْوَاهِ وَالأَحْدَاقِ!...

فَالرِّيَاضُ النَّضِرَةُ أَمْسَتْ مَقْبَرَةً .. وَحَبَّاتُ المَطَرِ أَمْسَتْ قَذَائِفَ في وَجْهِي وَجَسَدِي .. وَمَاءُ النَّهْرِ انْقَلَبَ إِلَى لَهِيبِ نَارٍ وَشَلاَّلِ دِمَاءٍ .. وَسَحَائِبُ دُخَانِ اليَأْسِ تُحِيطُ بِي وَتُلَفِّفُنِي مِنْ كُلِّ جَانِبٍ ...

وَمَعَ ذَلِكَ .. أَرْنُو نَحْوَ عَمُودِ الصَّبَاحِ ذِي المِنْدِيلِ اللَّهِبِيِّ، وَضَوْءِ الشَّمْسِ المُتَّقِد!

أَغُوصُ في هَلاَوِسِ أَحْلاَمِي وَخَيَالاَتِي ... أُبْحِرُ دَاخِلَ ذَاتِي .. أَنْشُرُ فِيهَا أَشْرِعَتِي المُتَهَالِكَةَ الَّتِي تَنْفُذُ مِنْهَا الرِّيحُ؛ فَلاَ أَجِدُ إِلاَّ الغَيْمَ وَدُجْنَةَ اللَّيْلِ البَهِيمِ، وَمَوْجًا يَتَلاَطَمُ .. يَصْفَعُ وَجْهِي .. يُمَزِّقُ أَشْرِعَتِي .. يَرْمِينِي إِلَى صَخَبِ القِيعَانِ .. أَغُوصُ فِي أَعْمَاقِهَا .. أَبْحَثُ عَنْ كِيَانِي .. أُبْحِرُ فِي أَمْوَاجِهَا المُتَلاَطِمَةِ في مَرْكِبِي الصَّغِيرِ بلاَ شِرَاعٍ وَلاَ مِجْدَافٍ .. تَتَقَاذَفُنِي الأَمْوَاجُ الْمُتَلاَطِمَةُ .. تَتَلاَعَبُ بِي وَبالمَرْكِبِ أَمْوَاجٌ لاَ تَرْحَم .. تَتَخَبَّطُنِي وَتَتَخَبَّطُهَا .. تُطِيحُ بِي وَبالمَرْكِب .. أَسْقُطُ فِي الْيَمِّ وَتَنْقَلِبُ المَرْكِب .. أَخْبِطُ فِي المَاءِ خَبْطَ عَشْوَاءٍ مِنْ غَيْرِ خِبْرةٍ وَلاَ تَمَرُّسٍ حَتَّى أَصِلَ إِلَيْهَا .. أَصْعَدُ عَلَي المَرْكِبِ المَقْلُوبَةِ .. نَكَادُ نَغُوصُ فِي الْيَمِّ مَعًا .. تَصْفَعُنِي الأَمْوَاجُ، تُطِيحُ بِي .. أَسْقُطُ مَرَّةً أُخْرَى فِي الْيَمِّ.. وَتُطِيحُ الأَمْوَاجُ بالمَرْكِبِ .. تَرْفَعُهَا فِي الهَوَاءِ .. تَسْقُطُ عَلَي سَطْحِ المَاءِ -وَيَا لَلْعَجَبِ- مُعْتَدِلَةً عَلَي بَطْنِهَا!! .. أَخْبِطُ فِي المَاءِ حَتَّى أَصِلَ إِلَيْهَا .. أُمْسِكُ بِهَا .. أَتَشَبَّثُ.. تَرْفَعُنِي الأَمْوَاجُ.. أَقْفِزُ عَلَي ظَهْرِهَا، وَ.. أُعَاوِدُ الإِبْحَارَ مِنْ

جَدِيد، وَيَزْدَهِرُ فِي النَّفْسِ أَمَلٌ جَدِيدٌ سُرْعَانَ مَا يَتَهَاوَى إِلَي قَاعٍ سَحِيق! ...

❁❁❁❁❁

عَوَاصِفٌ وَعَوَاطِفٌ فِي النَّفْسِ لاَ تَرْكَدُ، وَالشُّعْلَةُ المُؤَجَّجَةُ فِي القَلْبِ لاَ تَخْمَدُ.

مُسَافِرٌ أَبَدِيٌّ فِي دِمَائِي .. أَغُذُّ السَّيْرَ إِلَي مَحَطَّتِي النِّهَائِيَّةِ، وَلَكِنْ .. مَا تَجَاوَزْتُ حُدُودَ عُرُوقِي، وَعُدْتُ ... مِنْ حَيْثُ ابْتَدَأْتُ!!

وَكَمْ سِرْتُ -وَأَنَا لاَ أَدْرِي- شَرِيْدًا أَعْمَى فِي دَرْبِ النَّكِرَاتِ؛ أَجُرُّ عَرَبَاتِ الخَيْبَاتِ، أَلْوِي أَعْنَاقَ الذُّلِّ عَلَي شَتِيتِ مَاضٍ أَخْرَسَ نُهِبَتْ أَيَّامُهُ وَلَمْ يَبْقَ مِنْهَا إِلاَّ اللَّعَنَات .. وَتَتَسَلَّلُ آهَاتُ البَوْحِ مِنَ الذَّاكِرةِ كَمِسْمَارٍ يُدْمِي فِي العَقْلِ وَتَتَحَرَّشُ بِالتَنْهِيدَاتِ العَتِيقَاتِ؛ عَلَى مَاضِي الأَسْرِ الكَئِيبِ، وَحُرِّيَّةِ .. (التَّمَرُّغِ في الطِّينِ)!! وَ(أَحْلاَهُمَا مُرٌّ)!!!

وَتُهْتُ فِي فَرَاغِ صَدَى الصَّمْتِ الثَّقِيلِ .. يُطْبِقُ عَلَيَّ .. يَعْتَصِرَنِي .. يَجْعَلُنِي هَوَاءً .. يَتَسَرَّبُ فِي سِرْدَابِ المَحْوِ!!.. بدلاً مِنْ أَنْ أَتَبَخَّرَ .. أَتَصَاعَدُ فِي الهَوَاءِ .. أُصْبِحُ سَحَابَةً؛ أَدُورُ فِي البِلاَدِ ... وَلَكِنْ هَيْهَات!

أَتَقَاسَمُ الصَّمْتَ المُطْبَقَ مَعَ الطَّبِيعَةِ مِنْ حَوْلِي ـ الَّذِي لاَ يُؤَرِّقُهُ هَمْهَمَاتُ الغَابِ ـ كَمَا أَتَقَاسَمُ مَعَهَا صَرِيرَ الرِّيَاحِ؛ كَصَهِيلِ خَيلٍ طَلِيقَةٍ فِي السِّبَاقِ تَاهَتْ فِيهِ النِّهَايَةُ، وَحَوَافِرُ الخَيْلِ عَلَي الأَرْضِ الحَجَرِيَّةِ تُوَلِّدُ إِيْقَاعَاتٍ رَتِيبَةً، صَوْتُهَا يَطِنُّ فِي الأَرْضِ المُقِيمَةِ فِي النُّعَاسِ! ..

صَمْتٌ يُزَمْجِرُ بدَاخِلِي .. يَحْفُرُ النُّفُورَ في جُدْرَانِ ذَاتِي، يُشْعِلُ نَارًا فِي الحَنَايَا، أَمْسَى الصَّمْتُ عُنْوَانَ الحُزْنِ والأَلَم! يُؤَرِّقُنِي سُكُونُهُ المُرْعِبُ المُخَضَّلُ بدَمْعِ القُلُوبِ وَطَنِينِ الفُؤَاد؛ كَمَا يُؤَرِّقُنِي السُّكُونُ الَّذِي يَلُفُّنِي وَيَلُفُّ التِّيهَ مِنْ حَوْلِي،.. أَنْتَظِرُ هُبُوبَ العَاصِفَةِ الهَوْجَاء!.. سُكُونٌ كَالْوُجُومِ، وَصَوْتٌ كَالنَّحِيبِ عَصَفَ بِهِ الهَوْلُ فَأَمَاتَ الصَّدَى!

❁❁❁❁❁

أُحِبُّ المَاءَ يَرْوِينِي لاَ أَنْ أَغْرَقَ فيه -بعد أَنْ أَسِن- عُريانًا في بَرْدِ الشتاءِ القَارِصِ، أَوْ أَنْ أَرْتَوِي مِنْ حُمُوضَةِ العَرَقِ .. وَالمَطَرُ فُيُوضَاتُهُ قَاتِلَةٌ وَعَطَايَاهُ إِغْرَاقٌ، وَقَدْ أَمْسَى سَيْلاً يَجْرِي ببَرَاكِينِ الجَحِيمِ!..

أَكْثِيرُ عَلَي الظَّمْآنِ الصَّدِي أَنْ يَتَوَهَّمَ الرِّيَّ فِي فَيَافِي البَيْدَاءِ؛ وَقَدْ أَمْسَيْتُ ظَامِئًا مَعَ غَرَقِي فِي المَاءِ!.. "فَكَمْ مِنْ عَطْشَانٍ فِي اللُّجَّة"؟

وَأُحِبُّ التُّرَابَ يَأْوِينِي فِي لِيلِ الصَّيْفِ لاَ طِينًا أَنْغَرِسُ فِيهِ [وَلاَ حَمَأً مَسْنُونًا يَنْغِرِسُ فيَّ] .. أَهْرَبُ مِنَ الطِّينِ، وَلَكِنْ .. أَسْتَرْوِحُ رَائِحَةَ التُّرَابِ وَأَلْجَأُ إِلَى لِيُونَةِ دِثَارِه -وَيَا حَبَّذَا- مَعَ نعومةِ الزَّغَبِ[1] وَرِيْشِ الأَوْهَامِ! وَأَبْنِي عُشًّا (وَكَمْ بَنَيْتُهُ؟!) بِالعُشْبِ وَمَيْتِ الزَّهْرِ؛ فَتَذْرُوهُ الرِّيَاحُ العَوَاصِفُ .. وَيَأْكُلُهُ المَطَرُ .. وَتَجْرِفُهُ السُّيُولُ! ...

---

(١) الزَّغَبُ: صِغَارُ الرِّيشِ وَالشَّعْرِ وَلَيِّنُهُ. الوَاحِدَةُ: زَغَبَةٌ.

وَيَا لَهُ مِنْ تُرَابٍ أَصَمَّ فِيهِ الوَدَاعَةُ، وَفِيهِ .. الأَلَمُ!!

أُحِبُّ ضَوْءَ الشَّمْسِ بِأَلْوَانِهِ الذَّهَبِيَّةِ وَالأُرْجُوَانِيَّةِ وَالحَمْرَاء؛ بَلْ بِأَلْوَانِ الطَّيْفِ وَدَرَجَاتِهِ،.. يُنِيرُ لِيَ الطَّرِيقَ وَيَكْشِفُ مَا دَقَّ وَمَا خَفِي .. تَظْهَرُ الحَقَائِقُ وَتَفْتَضِحُ .. يَبْعَثُ الضِّيَاءَ وَالحَيَاةَ، وَلَكِنْ .. تَحْتَرِقُ بِسَبَبِهِ أَوْرَاقُ الأَشْجَارِ المُتَسَاقِطَةِ! .. وَخَلَّفَ الضَّوْءُ نُورًا وَنَارًا، فَأَخْشَى فِتْنَةَ النُّورِ وَغَبَشَهُ عَلَي عَيْنِي الكَلِيلَةِ وَإِحْرَاقَهُ لِجَسَدِي المَقْرُوحِ، وَأَخْشَى .. أَشْبَاحَ الظَّلاَمِ الخُرَافِيَّةَ وَكُهَّانَهُ الَّتِي تُقَدِّسُ المَوْتَ!

❁❁❁❁❁

أَضْدَادٌ تَاهَتْ حُرُوفُهَا وَاخْتَلَطَتْ، فَتَشَابَهَتْ عَلَي عَينٍ كَلِيْلَة، تُصَاوِلُ الْوَحْشَ الكَلاَمِيِّ المُدَجَّجَ بِكُلِّ حُرُوفِ الهِجَاءِ؛ تَرْسَخُ الحُرُوفُ فِي ذَاكِرَةِ التُّرَابِ .. تَتَجَمَّعُ مِنْ حَوْلِي تَسْلُبُنِي ذَاتِي .. أَبْحَثُ فِيهَا عَنْ شَظَايَا أَحْلاَمِي المُبَعْثَرَةِ، وَأَنْتَظِرُ لَحْظَةَ زَوَالِي، .. أَتَخَبَّطُ فِي ضَبَابِ اللَّاَ شَيْءِ .. يَخْفَى عَلَيَّ كُنْهُ ذَاتِي .. تَتَصَارَعُ مَعِي كُلُّ الأَضْدَادِ؛ صَلاَحٌ وَفُجُور .. حِكْمَةٌ وَطَيْش .. المُحَتَّمُ وَالمُسْتَحِيلُ .. الصَّلاَبَةُ وَاللِّينُ .. الحَقِيقَةُ وَالوَهَم .. الوَاقِعُ وَالخَيَال .. يَنْهَشُ كُلُّ شُعْبَةً مِنْ ذَاتِي، يَنْغَرِسُ كُلُّ ضِدٍّ فِي شَرَايِينِي .. يَغْزُو دَمِي .. يَغْمِسُ أَصَابِعَهُ الطَّوِيلَةَ .. يَجْرِي نَحْوَ القَلْبِ .. تَصُدُّه كُرَيَاتُ دَمِي .. تَتَكَسَّر .. يَصِيرُ دَمًا أَسْوَدَ يَسْهُلُ الْتِهَامُهُ، وَلَكِنْ .. تَتَعَاقَبُ مَوْجَاتٌ أُخَرُ تِلْوَ مَوْجَات، والصِّرَاعُ لاَ يَهْدَأ!..

أُيَمِّمُ وَجْهِي المُعَفَّرَ بِالطِّينِ اللاَّزِبِ نَحْوَ الضَّوْءِ الأُرْجِوَانِيِّ الشَّاحِبِ

لِمَغِيبِ الشَّمْسِ؛ كَلَهَبِ مِدْفَأَةٍ يَخْمَدُ فِي لَيْلَةٍ شِتْوِيَّةٍ قَارِسَةِ البِرْدِ .. وَمَعَ شُحُوبِهِ أَتَحَاشَاهُ .. أَمْضِي مُنَكَّسَ الرَّأْسِ فِي ضَوْءِ الشَّمْسِ؛ فَلاَ أُطِيقُ النَّظَرَ إِلَيْهِ لِغَبَشِ بَصَرِي مِنْ أَثَرِ الطِّينِ المُتَعَفِّنِ المَحْمِيِّ .. أَسْتَدْبِرُهُ .. أَعُودُ إِلَيهِ لِمَسِيسِ حَاجَتِي إِلَى الحَقِيقَةِ .. (أَتْرَاحٌ وَأَفْرَاحٌ) .. وَكَأَثَرٍ حَفَرَتْهُ الرِّيحُ وَالشَّمْسُ ثمَّ انْطَمَرَ؛ أَزْدَادُ شَوْقًا لِلنُّورِ والضِّيَاءِ .. تَضْطَرِبُ الأَفْكَارُ وَتَتَلَعْثَمُ الخُطُوَاتُ، .. وَغَاضَتْ ثُمَالَةُ ضَوْءِ الغُرُوبِ، وَ.. نُذُرُ الاحْتِفَالاَتِ الجَنَائِزِيَّةِ تَقْتَرِبُ مِنَ الأَفْكَارِ وَالخُطُوَاتِ المُلْتَاعَةِ! .. فَـ"الْمَوْتُ صَدِيقٌ تَتَقَادَمُ بَيْنِي وَبَيْنَهُ المَوَاعِيد، أَشْعُرُ بِخُطْوَتِهِ فِي رِيْحِ اللَّيْلِ وَفَحْمَةِ الظُّلْمَة، وَأَتَوَقَّعُهُ زَائِرًا كُلَّمَا امْتَلأَتْ قُطُوفُ المِحْنَةِ بِالعَطَايَا وَتَثْقُلَ عَلَي القَلْبِ الفَرَح!"

وَتَتَهَاوَى إِلَي المَغِيبِ مُنَمْنَمَاتٌ [مُزَخْرَفَاتٌ مُرَقَّشَاتٌ] مِنْ ذَهَبِ الشَّمْسِ بَعْدَ طَحْنِهَا بَيْنَ أَوْرَاقِ وَأَغْصَانِ الشَّجَرِ المُلْتَفِّ؛ تَنْثُرُهُ شَظَايَا عَلَي أَرْضٍ مُصْفَرَّةٍ مِنْ بَقَايَا وَهَجِ الشَّمْسِ. وَيَنْسَحِبُ الضَّوْءُ الشَّاحِبُ فِي الأُفُقِ .. يَتَوَارَى .. يُعَانِقُ الظَّلاَمُ الصُّخُورَ .. وَيَتَصَفَّحُ الأُفُقُ بِالحَدِيدِ؛ يُعْلِنُ أَنَّ اللُّغَةَ المَسْمُوعَةَ وَالمَرْئِيَّةَ سَتَكُونُ لُغَةَ اللَّيْلِ الَّتِي لاَ تَعْرِفُ إِلاَّ السَّوَادَ! وَأَشْبَاحُ الخَوْفِ تَنْطَلِقُ فِي فَضَاءِ الظَّلاَمِ المُخِيفِ الَّذِي يَنْتَفِضُ سَوَادًا مِنْ حَوْلِي تُعْلِنُ السِّيَادَةَ لأَشْبَاحِ الظَّلاَمِ، وَأَنَّ هَذَا أَوَانُ احْتِرَاقِ الشُّمُوعِ الضَّائِعَةِ! .. تَسْرِي الظُّلْمَةُ مِنْ حَوْلِي، وَقَدِ احْتَلَّتْ عَيْنِي، وَمَاتَتْ بِعَيْنِي مَنَارَاتُ الطَّرِيقِ،.. وَتَشَرَّبَتِ الأَرْضُ القَاسِيَةُ الظُّلْمَةَ.. تَرْسُمُ مِنْ حَوْلِي

أُخْطُبُوطًا يَتَمَطَّى .. يَحْتَوِينِي بِأَذْرُعِه العَنْكَبُوتِيَّة، وَيَفْغرُ أَشْدَاقًا رَهِيبَة،.. تَنْسَابُ الظُّلْمَةُ بِقَتَامَتِهَا فِي كِيَانِي .. تَخْتَرِقُ القَلْبَ المَنْهُوكَ المُثْقَلَ بِالآلاَم .. تُعَشِّشُ فِي أَخَادِيدِ الحُزْنِ الَّتِي شُقَّتْ فِي القَلْبِ، يَتَشَرَّبُها كَمَا تَشَرَّبَتْهَا الأَرْضُ مِنْ حَوْلِه .. وَفِي هَذَا الظَّلاَمِ أُطَاعِنُ فِي يَأْسٍ القَهْرَ وَالذُّلَّ وَالعَار!..

تَتَلاَحَقُ انْفِجَاراتُ بُرْكَانِ صَدْرِي، وَبِدَاخِلِي حَدِيدٌ مَصْهُورٌ وَثَلْجٌ .. تَتَعَالَى دَقَّاتُ الصَدْرِ .. تَتَسَارَعُ كَمَا تَتَسَارَعُ دَقَّاتُ سَاعَةِ العُمْرِ القَصِير! .. يَتَرَنَّحُ الجَسَدُ .. يَتَخَبَّطُ فِي كَوَابِيسِ الظَّلاَمِ وَغِيلاَنِهِ[1] الوَحْشِيَّةِ وَأَشْبَاحِهِ الخُرَافِيَّة .. تَجْلِدُنِي بِأَذْنَابِهَا الوَهْمِيَّة .. يَتَهَاوَى الجَسَدُ المَنْهُوك .. تَتَعَثَّرُ فِيَّ الأَشْيَاءُ المُبَعْثَرَة .. يَتَلاَطَمُ وَجْهِي بَيْنَ الشَّجَرِ وَجَلاَمِيدِ [صُخُورِ] الحَجَرِ وَطِينِ الطَّرِيقِ اللَّازِبِ وَالحَمَأِ المَسْنُون، وَغُدْرَانٍ غَادِرَةٍ غَارَ مَاؤُهَا وَمَا بَقِيَ إِلاَّ الرَّمْلُ النَّاعِمُ؛ كَحَيَّةٍ رَقْطَاء تَبْلَعُ الأَثَر!..

آهٍ! لَوْ كُنْتُ صَبَّارًا مَسْمُومَ الأَشْوَاكِ؛ لَطَعَنْتُ الآنَ لَحَظَاتِ القَهْر!

تَنْغَرِسُ الأَشْوَاكُ وَخَنَاجِرُ ذَوَائِبِ[2] الأَحْجَارِ الدَّامِيَةُ فِي قَلْبِي؛ فَيُدْمَى وَتَتَمَزَّقُ الأَجْنِحَةُ مِنِّي وَالأَقْدَامُ .. أُكَابِدُ تَحْتَ أَنْقَاضِي الدَّامِيَةِ ..

---

(١) فِي زَعْمِ العَرَبِ: أَنَّ الغِيلاَنَ هِيَ الشَّيَاطِينُ الَّتِي تَظْهَرُ لِلنَّاسِ فِي الفَلاَةِ فَتَتَلَوَّنُ لَهُمْ فِي صُوَرٍ شَتَّى وَتَغُولُهُم؛ أَيْ: تُضَلِّلُهُمْ وَتُهْلِكُهُمْ.

(١) مُفْرَدُهَا: ذُؤَابَة؛ وَهِيَ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ: أَعْلاَهُ.

(وَأَنَا الَّذِي لَمْ يَعْلَقْ بِي -يَوْمًا- غُبَارٌ) أَتَقَلَّبُ عَلَي جَمْرِ الطِّينِ فِي جَحِيمِ مُسْتَنْقَعِ القُمَامَةِ وَعُصَارَةِ الرِّمَمِ وَالمَوَاتِ القَدِيمِ.. وَتَحْتَ مِيَاهِهِ جَمْرٌ يَشْتَعِلُ، وَبَيْنَ قُمَامَتِهَا آلاَفُ العَقَارِبِ وَالأَفَاعِي وَالحَيَّاتِ الرُّقْطِ!.. يَنْتَابَنِي الغَثَيَانُ مِنْ فَرْطِ مَا التَهَمْتُ مِنْ نَجَاسَاتِ الوَحْلِ وَعَفَنِهِ .. أَمْسَيْتُ بِيَدِ الحُزْنِ وَالأَسَى حَرْفًا لِلذُّلِّ يَكْتُبُهُ عَلَي الأَوْحَالِ مُمْتَدًّا طَوِيلاً يَكْتُبُ بِهِ النِّهَايَاتِ ...

أَبْكِي بُكَاءَ الغَرِيبِ الوَحِيدِ الشَّرِيدِ الَّذِي تُطَارِدُهُ خُيُولُ اليَأْسِ بَلْ تُحَاصِرُهُ، فَجَرَى دَمْعِي سَخِيٌّ هَتُونٌ، (وَقَدِ انْبَجَسَ المَاءُ مِنْ جَسَدِي وَالدَّمْعُ مِنْ مَآقِيِّ)، تَتَشَرَّبُ الأَرْضُ كُؤُوسًا مِنْ دَمْعِي؛ تَنْبُتُ فِيهَا بَرَاعِمُ عُشْبٍ أَخْضَر، وَتَتَدَاوَى جِرَاحَاتِي .. تَتَطَهَّرُ.. تَكُونُ رِيًّا لِلزُّهُورِ، وَمِنِ اخْضِرَارِ الجِرَاحِ يَنْبُتُ البَلْسَمُ[1] واليَاسَمِين،..

أُعَاوِدُ القِيامَ، وَأُحَاوِلُ المَسِير .. تَتَرَنَّحُ خُطُوَاتِي فِي المَزَالِقِ وَأَشْبَاحِ الظَّلاَم؛ فَأَتَخَبَّطُ فِي الأَشْوَاكِ مَرَّاتٍ أُخَرَ بِقَلْبٍ كَسِيرٍ .. كُلُّ شَيْءٍ فِي دَمِي لاَ يَتَحَدَّدُ وَلاَ يَتَوَحَّدُ .. فَمَا أَشَقَّ حَيَاةَ ذَبِيحٍ يَتَخَبَّطُ فِي الطِّينِ! .. تَتَخَبَّطُ عَزِيمَتِي فِي الحَمَأِ المَسْنُونِ فَتَتَهَاوَى فِي الحُفَرِ .. وَأَمْسَى ظِلِّي عَلَي الأَشْوَاكِ خَامِدًا! .. فَيَا لَكَآبَةَ المَنْظَرِ! .. وَيَا لَقَلْبِي الحَطِيمِ الكَسِيرِ

---

(٢) البَلْسَمُ: جِنْسُ شَجَرٍ مِنَ القَرْنِيَّاتِ الفَرَاشِيَّة، يَسِيلُ مِنْ فُرُوعِهَا وَسُوْقِهَا إِذَا جُرِحَتْ عُصَارَةٌ رَاتِنْجِيَّةٌ، تُسْتَعْمَلُ فِي الطِّبِّ. وَالبَلْسَمُ: دَوَاءٌ تُضَمَّدُ بِهِ الجِرَاحَاتُ.

البَائِس! .. وَيَا لَظَى الآلاَمِ!..

يَتَسَاقَطُ مِنْ وَجْهِي طِينٌ مُفَتَّتٌ مِنْ عَفَنٍ؛ مِنْ جرَّاءِ جَمْرِ مُعانَقةِ الطِّينِ اللَّازِبِ، وَالْتَفَّتِ الكآبَةُ حَوْلَ مَآقِيِّ النَّازِفَةِ وَمَحْيَايَ الكَالِحِ، وَتَعَرَّيْتُ مِنَ الرِّيشِ فَأَضْحَيْتُ أُلْعُوبَةً لِهَوَامِ الأَرْضِ!.. وَأَمْسَيْتُ عُنْوَانًا دَامِيًا لِلأَسَى وَالحُزْنِ بَعْدَ أَنْ أَكَلَ الطِّينُ مِنْ جَسَدِي وَتَقَرَّحَ وَرَسَمَ تَضَارِيسَهُ عَلَي جِلْدِي؛ لُطَخٌ زَرْقَاءُ وَسَوْدَاءُ مُدْماةٌ عَلَي مَسْخٍ مُشَوَّهٍ عُرْيَانًا إِلاَّ مِنَ الطِّينِ العَتِيقِ، وَأَمْسَيْتُ شَبَحًا مَصْلُوبًا أَشْبَعَتْهُ الرِّيحُ جَلْدًا وَحَرْقًا .. تَنْفُذُ فِي أَعْضَائِي المُتَهَالِكَةِ.. تُرْشَقُ كَالخَنَاجِرِ فِي شَرَايِينِي .. تَغْزُو دَمِي (الَّذِي لَمْ أَكُنْ قَدْ تَنَبَّهْتُ مِنْ قَبْلُ لِنَتَنِهِ فِي عُرُوقِي) .. حَفِظَتْ دُرُوبَ شَرَايِينِي .. تَزْهُو فِي عُرُوقِي الوَاهِنَة .. تَشِفُّ الضُّلُوعَ .. تَنْخرُها .. تَحِزُّ فِي جَسَدِي كَسِكِّينٍ صَدِئٍ عَتِيقٍ، وَيُشْحَذُ عَلَي ضِفَافِ جُرُوحِي الَّتِي لاَ تَنْدَمِل!.. يَنْحَلُّ جَسَدِي إِلَي أَشْلاَءٍ تَعْبَثُ بِهَا الفِئْرَانُ وَالْهَوَام، وَ.. تَرْقُصُ فَوْقَ أَجْدَاثِ الأَمَلِ!..

وَمِنْ خِلاَلِ الوَحْلِ وَالطِّينِ.. وَعَبْرَ الجَمَاجِمِ وَالأَشْلاَءِ؛ أَنْظُرُ فِي الظَّلاَمِ إِلَي الأُفُقِ الْمُسْتَحِيلِ، وَتَتَقَاذَفُنِي المُحَالاتُ؛ مُحَالٌ وَرَاءَ مُحَالٍ، وَمَاتَتْ اللَّحَظَاتُ بَعْدَ أَنْ تَاهَ الغَدُ فِي الظَّلاَمِ، وَانْتَحَرَ الشُّعَاعُ فِي جَمْرِ الحُفَرِ؛ فَجَثَمَ اللَّيْلُ وَتَحَجَّرَ بَعْدَ أَنْ أَفْرَخَ ظَلاَمًا دَامِسًا وَهَوَاجِسَ رُعْبٍ، وَتَجَمَّعَتْ كُلُّ دَيَاجِيرِ وَجَحَافِلِ الظَّلاَمِ، وَتَكَدَّسَتْ الكُرُبَاتُ، وَتَعَاظَمَتِ العَتَمَاتُ، وَهَوَتْ قُصُورُ الأَحْلاَمِ، وَسَقَطَتْ كَوَرَقَةٍ صَفْرَاءَ هَشَّةٍ أَطَاحَ بِهَا قَصْفٌ مِنَ الرِّيحِ أَوْ إِعْصَار،.. وَكُلَّمَا اقْتَرَبَتْ أَنْوَارُ الفَجْرِ أَنْ تَخْرُجَ مِنْ

أَكِنَّتِهَا الْتَهَمَتْهَا وُحُوشُ اللَّيْلِ،.. وَتَابَعَ اللَّيْلُ غَزْوَهُ، وَأَمْسَى الصُّبْحُ ـ تَحْتَ أَكْدَاسِ الظُّلْمَةِ وَحْشِيَّةِ الكَثَافَةِ ـ أَبْعَدُ مِنَ المَنَايَا وظِلُّ المَوْتِ أَقْرَب،.. فَالمَنَايَا تَتَرَصَّدُنِي خَلْفَ الغُيُومِ، وَدُخَانُ العُمْرِ يَتَجَعَّد.. يَتَلَبَّد.. يَلْتَفُّ دَوَائِرَ وَخُطُوطًا مُعْوَجَّة!.. يَسِيرُ المَوْتُ بِتُؤَدَةٍ .. يَحُطُّ عَصَاهُ .. يُحَطِّمُ قُصُورَ المَرَايَا (شَظَايَا وَجْهِي المُبَعْثَرَة)!.. وَعُدْتُ أَخْشَى أَنْ يَحْرِقَنِي الفَجْرُ بنَارِ مَذَابِحِهِ وَيَحْرِقَ بتَوَهُّجِهِ بَقِيَّةَ نَبْضٍ عَلِيلٍ وَارْتِعَاشٍ فِي عُرُوقِي الوَاهِنَةِ!.. يَتَجَمَّدُ الخَوْفُ فِي حَلْقِي فِي أَعْلَى الصَّدْرِ .. يَخْنِقُ الأَمَلَ، يَمْنَعُهُ مِنْ أَنْ يَتَسَرَّبَ إِلَي القَلْبِ ... أَبْحَثُ عَنْ مَنْ يَفْدِينِي أَوْ مَنْ يَنْتَشِلَنِي ويَفِكُّ قُيُودِي، لاَ مَنْ يَغْسِلُ وَجْهِي بمَاءٍ مُقَطَّر، أَوْ يُحَاوِلُ تَطْهِيرِي بشَلاَّلاَتِ كُلِّ النَّوَاعِيرِ المَنْصَوبَةِ فِي مَجَارِي الأَنْهَارِ!!

أَعْلَكُ ذِكْرَى رَغَدِ العَيْشِ وَلُيُونَتِهِ، وَتَتَابَعُ فِي عَقْلِي الصُّورُ، وَأَذْكُرُ مَاضِي السَّذَاجَةِ وَالطُّهْرِ وَالبَرَاءَةِ كَبُلْبُلٍ صَدَّاحٍ بَيْنَ الجَدَاوِلِ وَالزُّهُورِ، يَصِيغُ القَلْبُ مِنْهَا أَهَازِيجَ وَأَغَارِيد، يَشْدُو بالأَمَلِ العَذْبِ، شَحْرُورًا فَوْقَ الوُرُودِ وَالأَعْشَابِ، مُتَغَنِّيًا بِطُهْرِ الحَيَاة، مُرَدِّدًا شِعْرَ السَّعَادَةِ وَالسَّلاَم، مُتَغَزِّلاً بالكَائِنَاتِ؛ السَّاذِجِ مِنْهَا وَالخَطِير،.. هُنَيْهَاتٌ[1] كَانَ يَضْطَرِمُ بِهَا الفُؤَادُ، وَهَمْهَمَاتٌ[2] كَانَ يَخْفِقُ بِهَا؛ كُنْتُ أُحِيكُهَا أُهْزُوجَةَ[1] سَمَرٍ وَطَرَبٍ ..

---

(١) مُفْرَدُها: هُنَيْهَةٌ، وَهُنَيَّةٌ؛ وَتَعْنِي: القَلِيل مِنَ الزَّمَانِ.

(٢) الهَمْهَاسُ: الكَلاَمُ الخَفِيُّ لاَ يُفْهَمُ.

طَحَنَهَا الأَلَمُ وانْتَثَرَتْ شَظَايَا، فَمَا تَأْتِي الأَحْلاَمُ بِالصَّبَاحِ!.. وَكَمْ أَتَمَنَّى أَنْ تَعْتَلَّ الذَّاكِرَةُ وَلَكِنَّهَا اليَوْمَ حَدِيدٌ!

فَيَا لَهَا مِنْ ذِكْرَى حَنِينٍ مُحْتَرِقٍ بَعْدَ أَنْ تَقَطَّعَتْ أَمْرَاسُ الآمَالِ! وَأَنَّى لِيَ الآنَ رَنِيمُ النَّسِيمِ المُؤْنِسِ العَلِيل؟.. فَمَا لَهُ وَشَجْوِي[٣] . اليَوْمَ . بَعْدَ اصْطِلاَئِي بِلَظَاهَا؟! وَشُوَاظٌ مِنَ الحُزْنِ المُسْتَعِرِ تَتَفَجَّرُ فِي أَحْشَائِي وَتُصَدِّعُ مِنِّي الصُّدُورَ؛ وَقَدْ خَضَّبَ الأَسَى وَالشَّقَاءُ المُرُّ صَوْتِي بِبَحَّةِ النَّحِيبِ كَلَفْحِ اللَّهِيب! وَآهٍ .. مِنْ لَذْعِ اللَّهِيب، وَمِنْ تَحْرِيكِ كَفِّ الأَسَى لأَوْتَارِ الحَنِينِ وَالأَشْوَاقِ فِي القَلْبِ الحَزِين؛ وَقَدْ عَزَّ النِّسْيَانُ أَوْ حَتَّى التَّنَاسِي وَلَمْ يَعُدْ إِلاَ السَّيْلُ وَالطِّينُ وَالصُّخُورُ!.. وَيَجُولُ الحُزْنُ المُرُّ المُتَآمِرُ فِي فَمِي .. تَتَشَرَّبُهُ شَرَايِينِي .. يُسَافِرُ عَبْرَ ضُلُوعِي .. يُصْبِحُ هَيْكَلِي مُتَشَرِّبٌ وَمُتَشَبِّعٌ بِالمَرَارَةِ ... وَجَمَدَتِ الأَنَاشِيدُ بِصَدْرِي وَغَارَتِ الأَغَارِيد، وَأَضْحَتْ.. أَنِينًا وَشُجُونًا، وَأَضْحَى جَمْرُ الحُزْنِ يَخْرُجُ فِي الأَعْمَاقِ أَهَازِيجَ لِلْوَيْلِ وَالرُّعْبِ؛ مُلْتَاعًا لِمَصِيرِي الدَّاكِنِ القَاتِمِ وَآلاَمِ الوِحْدَةِ وَالغُرْبَةِ وَضَرَاوَةِ الفَرَاغِ!

كُنْتُ أَفْرَحُ وَأَمْرَحُ وَأُصَفِّقُ نَشْوَانًا مِنْ رُؤْيَةِ البُرُوقِ أَوْ سَمَاعِ الرُّعُودِ؛ فَسُرْعَانَ مَا أَرَاهَا تَصُبُّ لُؤْلُؤًا يَتَنَاثَرُ .. أَوْ لُجَيْنًا مُذَابًا مُتْعَةً لِلنَّاظِرِين، تَتَلَقَّاهُ

---

(٣) هَزِجَ؛ أَيْ: تَغَنَّى، فَهُوَ "هَزِجٌ"، وَ"الهَزَجُ": كُلُّ صَوْتٍ فِيهِ تَرَنُّمٌ خَفِيفٌ مُطْرِبٌ.

(٤) الشَّجْوُ: الهَمُّ وَالحُزْنُ.

الأَرْضُ مُسْتَبْشِرةً.. يُدَاعِبُهَا .. يَنْسَابُ كَطِفْلٍ عَلَي صَدْرِهَا؛ فَيَنْسَابُ حَيْثُ شَاءَتْ حَيْثُ يَظُنُّ الغِرُّ أَنَّه يَجْرِي حَيْثُ شَاء .. فَيَنْسَابُ مُرُوجًا وَأَنْهَارًا، فَإِذَا هِيَ . اليَوْمَ . تَصُبُّ عَلَيَّ مُهْلاً وَعَذَابًا وَتَجْرِي ببَرَاكِينِ الجَحِيمِ المُسْتَعِرِ!

كُنْتُ أَحْلمُ . كَحَبِيسٍ انْطَلَقَ مِن عِقَالِه . بِأَنْ أَهِيمَ فِي أَجْوَازِ الفَضَاءِ المَدِيدِ .. أُكْثِرُ مِنَ الجَوَلاَنِ؛ أَنْظُرُ البلادَ وَأَتَفَرَّسُ العِبَادَ .. أَمْسَحُ السُّهُولَ وَالوِدْيَانَ وَالغاباتِ وَالجِبالَ وَالشُّطْآنَ وَالغَدِير .. أُنَاجِي الفَجْرَ وَالغُرُوبَ .. أُلاعِبُ الطَّيْرَ والنُّجُومَ. مُوَشَّحٌ بأحلامٍ وَرْدِيَّةٍ .. أُعَانِقُ الورودَ وَأَلْثمُ الشَّجَرَ، أَتَسَمَّعُ حَفِيفَ غُصْنٍ يَطْرَبُ لِنَجْوِ هَمْسِ النَّسِيمِ، أَوْ خَرِيرَ مَاءٍ يُغَرِّدُ فِي طَنْبُورٍ أَوْ سَاقِيَة، أَوْ شَدْوِ شَادٍ أَوْ حَتَّى .. خَفْقِ صَدَى،.. أُعَانِقُ العَالَمَ الرَّحْبَ،.. عِنْدِي شَوْقٌ وشَغَفٌ بالحرِيَّة، وَلَكِنِّي أَخْشَى الحِجَارةَ والحَقَارَةَ وكُلَّ ما يُدَنِّسُ الأَمْشَاجَ والتَّرَائِب؛ فَلاَزِلْتُ أَحْيَا ذِكْرَى الْقَيْد!

❁❁❁❁❁

حَاوَلْتُ أَنْ أَسْبِقَ يَوْمِي فَسَقَطَ غَدِي، وَثَقَبْتُ الفَضَاءَ بِحُلْمِي فَسَقَطْتُ فِي بِرَكِ الوَحْلِ!..

أَيْنَ لِي سُوَيْعَاتٌ مِنَ النَّوْمِ السَّخِيِّ؟ وَأَيْنَ السُّبَاتُ؟ وَكَيْفَ الثَّبَاتُ .. وَفِي المُضْجَعِ لَهِيبٌ وَنَارٌ؟ .. وَمُنَغِّصَاتُ الطِّينِ حَمِيمِيَّتُهَا اشْتِهَاءُ أَنْ لاَ تُفَارِقَ أَوْ تَغِيبَ؛ كَصَبْوَةِ العِشْقِ المُبَرَّحِ .. وَشَائِجُ قُرْبَى عُرَاهَا لاَ تَنْفَصِمُ وَلاَ تَنْصَرِم .. رَحِمٌ تَشُدُّ خُطَايَ إِلَى الأَرْضِ! وَمَاشِطَةُ الرِّيحِ وَشِيجَةُ صِلَةٍ بَيْنَ

المَاءِ والطِّينِ .. بَيْنَ فَضَاءَاتِ الأُفُقِ وَتُرَابِ الأَرْضِ؛ كَمَا تَحْمِلُ حُبُوبَ اللِّقَاحِ بَيْنَ الشَّجَرِ؟!

فَكَيْفَ يُغْلَقُ في وجْهِي مَرَاحِمُ الحُلْمِ الجَمِيلِ ويُهَدَّمُ الأَمَلُ؟.. وسُهُوبُ النَّوْمِ تُدْمِي الذَّاكِرَةَ .. تُزَمْجِرُ في أُذُنِي كَصُنُوجٍ[1] تَدُقُّ -نَشَازًا- بالصَّدَأِ القَدِيمِ .. تَعْجِنُ في لِحْمِي كَسَنَابِكِ خَيْلٍ صَدِئَة، تُذِيبُ في سِدْمَتِهَا أَمْشَاجًا بَغِيضَةً.. تَسْتَحِيشُ دِمَاءَ السُّلاَلَةِ!.. تَجُولُ -في النَّوْمِ- في المُدُنِ المَهْجُورَةِ وَشَوَاهِدِ القُبُورِ خَلْفَ الهِضَابِ!

أَرَى الحَيَاةَ في ابْتِسَامَةِ وَلِيدٍ تَرَاهُ سَاذِجًا آمِنًا يُلاَعِبُ وَحْشًا أَوْ حَوْلَهُ نارٌ تَلَظَّى! .. أَوْ تَفَتُّحِ زَهْرَةٍ مِنْ أَكْمَامِهَا في قَفْرٍ أو حَقْلٍ مَجْرُود.

❁❁❁❁❁

كَالطَّيْرِ الشَّارِدِ لاَ أَنِيسَ ولاَ وَلِيف؛ وكُلُّ تَجَمُّعِ طَيْرٍ أَوْ وَحْشٍ بَلْ كُلُّ مَا حَوْلِي هُوَ عَدُوِّي وصَدِيقِي!.. ولِغَبَشِ الطِّينِ عَلَي عَيْنِي وسَفِّ الرِّيحِ أَرَى مَا حَوْلِي بَاهِتًا أَوْ بُهْتَانًا!!

وَكَالطَّيْرِ الشَّارِدِ لاَ أَلْوِي عَلَي شَيْءٍ .. لاَ مُسْتَقَرّ ولاَ بَيْت .. لاَ أَعْرِفُ زَمَانًا وَلاَ مَكَانًا .. تَتَسَاوَى كُلُّ الأَزْمِنَةِ وَتُخْتَصَرُ فِي زَمَانٍ واحِدٍ، وَتَتَسَاوَى

---

(١) مُفْرَدُها: الصَّنْجُ؛ قُرْصٌ مُدَوَّرٌ مِن نُحَاسٍ يُضْرَبُ بِهِ عَلَي آخَرَ فَيُحْدِثُ صَوْتًا ذَا رَنِينٍ. وَأَيْضًا أَقْرَاصٌ مِنْ نُحَاسٍ صَغِيرَةٌ مُسْتَدِيرَةٌ تُثَبَّتُ في إِطَارِ الدُّفِّ أَوْ تَوْضَعُ في أَصَابِعِ الرَّاقِصَةِ.

كُلُّ الأَمْكِنَةِ وَتُخْتَصَرُ فِي مَكَانٍ واحِدٍ. بَيْنَ سَدِيمِ الأَرْضِ يَمْضِي زَمَنِي، وَفِي قَيْدِ الطِّينِ يَمْضِي خَطْوِي .. وَطَوْقُ المَصِيرِ المُكَبِّل يَلْتَفُّ مَزْمُومًا ذَمِيمًا مَذْمُومًا!..

وَأُنَقِّبُ فِي غَابَةِ الزَّمَانِ عَنْ أَوْرَاقٍ خَضْرَاءَ أَوْ أَعْشَابٍ لاَزَالتْ نَضِرَةٍ؛ فَلاَ أَجِدُ إِلاَ نَبَاتَاتٍ ذَاوِيَةً وَأَشْجَارًا جَرْدَاءَ .. إِنَّهَا مُجَرَّدُ أَيَّامٍ جَرْدَاءَ تَنْتَظِرُ مِنْجَلَ حَصَّادِ المَوْتِ!

❁❁❁❁❁

وَيْلاَتٌ مُرِيعَةٌ مُفْزِعَةٌ بِحَجْمِ الرُّعْبِ تَتَضَخَّمُ، وَحُزْنٌ بِحَجْمِ وَخَنْقِ الكَآبَاتِ، وَانْهِمَارُ الأَحْزَانِ يَعْتَصِرُ الضُّلُوعَ .. يَأْسٌ رَصِينٌ بِأَشْوَاكِهِ يَتَسَرَّبُ رُوَيْدًا رُوَيْدًا إِلَى طَيَّاتِ نَفْسِي .. يَتَسَرْبَلُ فِيْهَا وَيُخَيِّمُ كَحَيَّةٍ كَامِنَة، تَدْعُو زَوْجَهُ حَجَرَ القُنُوطِ الأَسْوَدِ أَنْ يَتَّخِذَنِي بَيْتًا وسَكَنًا .. يَنْشُرُ ضَبَابَه الوَسِخَ الكَالِحَ -كَالثَّوْبِ العَتِيقِ- الَّذِي يُعْمِي الأَمْكِنَةَ مِنْ حَوْلِي .. يَطْوِينِي .. يُغَيِّبَنِي .. يَكْتُمُ أَنْفِي .. يُزْهِقُ رُوْحِي، وَلَكِنْ .. تَدْفَعُهُ مِضَخَّاتٌ مِنْ دَمِ الأَمَلِ المُنْبَجِسِ مِنْ أَعْمَاقِ الفُؤَادِ الحَرِيصِ عَلَي الحَيَاةِ.

تَتَقَاذَفَنِي نَفْسِي بَيْنَ نُورٍ ونَار، عُلُوٍّ وسُفُول، فَكَيْفَ سَبِيلِي إِلَي عُشٍّ أَخْضَرَ فَوْقَ السَّحَابِ؛ حَيْثُ السُّكُون، وَحَيْثُ الهُدُوء، وَ.. حَيْثُ الحَقِيقَة؟!.. وَأَنَّى لِمُكَبَّلِ الطَّيْرِ أَنْ يَكُونَ فِي الأُفُق؟! وَقَدْ هَوَتِ الخُطُوبُ بِأَحْلاَمِي إِلَي غَيَاهِبِ اللُّحُودِ، وَأَجْنِحَةُ المَنُونِ تَحُومُ مِنْ حَوْلِي!..

مَا أَجْمَلَ اليَدَ الحَانِيَةَ الَّتِي تَمْتَدُّ إِلَيَّ -الآنَ- بِرَغْمِ كُلِّ وَسَخِي!!

وَهَلْ لِي أَنْ أَتَسَاءَلُ: أَيَكُونُ هَذَا مَخَاضَ الأَلَمِ والأَوْجَاعِ؟.. وَهَلْ يَفِيقُ السَّكْرَانُ مِنْ كَثْرَةِ الضَّرَبَاتِ ويَنْتَفِضُ؟.. وهَلْ يَعُودُ الشَّارِدُ مِنْ شُرُودِهِ؟.. وَهَلْ يَثْبُتُ أَمَامَ أَنْوَاءِ[1] الأَيَّامِ وَصُرُوفِ اللَّيَالِي؟

❁❁❁❁❁

(١) مُفْرَدُها: نَوْء؛ وَهُوَ المَطَرُ الشَّدِيدُ.